.. ومواجهة أدبية أيضاً !

بقلم احمد محمد عطيّة

طالب أحد كبار المسؤولين الاسرائيليين بضرورة قطع كل سبيل لاتصال العرب داخل اسرائيل بأجهزة الاعلام العربية وبالثقافة العربية ، وبتذويبهم في بوتقة الثقافة الاسرائيلية ولو اقتضى الامر استعمال القوة . (اسرائيل قبيل العدوان ـ رفيق حبيب ـ دراسات فلسطينية) .

وهذا يدلنا على مدى فهم المسؤولين الاسرائيليين لخطورة الثقافة العربية اذا ما اتصلت بوجدان العرب وفكرهم داخل الارض المحتلة .

كما ان خطر ظهور الفلسطينيين كقوة محركة للاحداث في قضية فلسطين وفي حرب العصابات الناجحة ضد اسرائيل جعل اسرائيل ترتعد قائلة ان « الخطر الآن هو احتمال ظهور الفلسطينيين من جديد كعامل قوي » .

ولكن في الحقيقة يجب أن نطرح عن أنفسنا كل رضا بالنفس كما يجب ألا نتصرف كالنعامة ونخفي رؤوسنا عما يدور حولنا .

وأولى الخطوات لذلك هي أن نعرف كل شيء عن عدونا ، كل شيء بالمعنى الحرفي للكلمة . ان العدو الذي هزمنا في ثلاث حروب ، والذي هزمنا من قبل في المجالات الاجتماعية والاقتصادية على أرضنا نحن وليست أرضه ، بحاجة الى معرفة واسعة للاساليب التي حقق بها انتصاراته المتوالية .

ان اعلان قيام اسرائيل في الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ لم يكن الا ختاما للاعمال الاستعمارية الصهيونية الهائلة التي بذلت خلال أكثر من نصف قرن على أرضنا العربية في فلسطين . لذلك كان اعلان قيام اسرائيل مجرد اعلان عن نجاح أعمال الصهيونية طوال قرن من الزمان على أرضنا العربية .

لذا يجب أن نعترف بأن الادب العربي الحديث وقف موقفا غير جدي من قضية فلسطين . وفيما عدا بعض كتابات المناسبات أو الجمل المتناثرة في الروايات والاعمال الادبية والفنية فان قضية فلسطين لم تنل أي اهتمام حقيقي من كتابنا وفنانينا .

وهذا يشير بدوره الى حقيقة أليمة هي ان الفلسطينيين وحدهم ـ حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ هم الذين عانوا النكبة والمأساة بينما اكتفى العرب بالتعاطف معهم .

أنا لا أدين أحدا بالذات . ولكني أدين أنفسنا جميعا، كتابا وشعراء وفنانين ومثقفين عموما .

بل ان الغريب أن ينظر العرب عموما الى قضية الوجود الاسرائيلي من خلال قضية فلسطين فحسب . بينما قضية الوجود الاسرائيلي تخطر توسعي رهيب ، وكلعنة حلت بأرضنا العربية جميعها ، وكسيف مصلت على رقابنا جميعا ـ لم تحتل أية أهمية . وبذلك وفي ضوء هذا الفهم الغريب للمسألة الذي يقضي باعتبار اسرائيل محتلة لجزء من الارض العربية ـ أو بالذات لجزء من دولة عربية ، في ضوء هذا الفهم لم ننتبه اطلاقا الى وجود اسرائيل كخطر داهم .

ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا لم تنعكس قضية خطيرة ماسة بوجود الانسان العربي في كل مكان ، في أعمال كاتب عظيم كنجيب محفوظ مثلا الذي يمثل ضمير العصر العربي الصادق . فيما عدا اشارة خاطفة عابرة في روايته « الشحاذ » عند تشبيه خطر المرض بخطر اسرائيل الداهم على الابواب . ليس هذا ادانة لنجيب محفوظ أو لغيره من الكتاب والفنانين ، ولكنه من باب التدليل على اننا لم ننظر بجدية الى خطر اسرائيل ولم نقدر المسألة حق قدرها . واكتفينا باثارة المسألة في حدود الروتينيات وفي مناقشات الامم المتحدة السنوية العقيمة ، في البرامج الرسمية كبند رسمي لا أكثر ولا أقل . وأيضا في الرحلات الاليمة التي قامت بها جماعات وأفراد الى غزة للربح والتجارة والتمتع بالبهرجة البورجوازية . فبينما يتطلع مراهقو اسرائيل وصبيتها الى رؤية عدوهم العربي رؤية مباشرة عن طريق بعثات دائمة الى المستعمرات الصهيونية النائية ، تكتفي الجماعات البورجوازية برحلات سياحية الى سوق غزة الحرة لابتضاع البضائع الاستهلاكية الكمالية في سوق بورجوازي كريه مقام وسط مخيمات الفقر والبؤس (راجع المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة ـ أديب فعوار ـ دراسات فلسطينية) .

كيف تخوض أمة حربين دامتين في أقل من عشر سنوات ، أو ثلاث حروب في عشرين سنة ، ويطرد شعب بأسره طردا جماعيا بالارهاب والدم ليحل محله شعب غريب مهلهل يجمع على دفعات من أطراف العالم . كيف يحدث كل هذا لامة ما دون ان يزلزل أدبها وينتشله من رقدته الناعمة المتواكلة ؟

فاذا قلنا ان لهزيمة يونيو فائدة فلأنها ايقظتنا من خمول الجهل بالعدو ، ومن تجاهل عدوه الحقيقي المباشر، ومن رؤية الهاوية البشعة التي يحفرها التتار المتوحشون لبلادنا العربية ولثقافتنا ولتوازننا النفسي جميعا .

لذا فعندما نطالع أدب غسان كنفاني مثلا فاننا نصافحه بفخر وحب لانه الصوت الندي الذي لم يغفل الحقيقة ولم يتجاهلها اطلاقا . ان غسان كنفاني لم يفعل ذلك لانه فلسطيني وقعت عليه آثار الجريمة فحسب ، ولكن لانه وبالدرجة الاولى فنان صادق الحس جيد الرؤية .

أنا لا أقول بأن فلسطين لم تكن موجودة في قلوبنا وعقولنا ، أو اننا لم نكن نفهم خطر اسرائيل التوسعي الرهيب . ولكني أردت أن أبين ان اسرائيل احتلت جزءا من فكرنا الرسمي ولكن فنوننا وآدابنا لم تعش هذا الخطر الداهم .

ان اسرائيل يجب أن تشغل كل تفكيرنا وكل فنوننا وآدابنا . ان غسان كنفاني يدلنا على ان الادب الصهيوني هو الذي أوجد العمل السياسي الصهيوني وخطط له . (في الادب الصهيوني ـ غسان كنفاني ـ دراسات فلسطينية) . ان الانسان ليتمزق ألما وغضبا كلما طالع الاكاذيب الصهيونية في رواياتهم عن العرب وحياتهم وضعفهم . ولكن التمزق يتزايد عندما تفتقد قضية الصراع العربي الاسرائيلي وجودها في الاعمال الادبية العربية بينما يدفع الصهيونيون بالقضية عبر أعمالهم الادبية الى العالم بأسره لغسل دماغه وتهيئته للعدوان الاسرائيلي المتكرر . ان انفراد الادب الصهيوني بعقل العالم ، وفي الغرب خصوصا ، جعل العالم يردد أفكار اسرائيل وحدها .

وهذا يدلنا على أهمية الادب والفن ليس كداعية ولكن كفن يتمثل الحقيقة التي تواجه شعوبنا العربية .

فلو أخلص الادب العربي والفن العربي والفكر العربي لقضية القضايا وقضية المصير لما وصل بنا الامر الى الاستهانة بالعدو التي أوقعتنا في الهزيمة المرة .

لو شغل الفكر والفن والثقافة عموما بقضيةالوجود الاسرائيلي لما أمكن لاية دعاوى أن ترتفع ، ولماتت قبل أن ينطق بها أي مساوم .

ولما كانت فلسطين غير واردة في أعمالنا الادبية بشكل جاد ، فان ذلك يذكرنا بموقف سابق مماثل قبل نكبة ١٩٤٨ عندما كان اليهود يقتالون فلسطين بينما لم يكن لفلسطين أي ذكر في برامج الاحزاب المصرية ، رغم تصريحات الساسة المصريين الطنانة ، كما يؤكد الدكتور صلاح العقاد في كتابه « قضية فلسطين المرحلة الحرجة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٦ » (ص ٦٠) .

حقا لقد نوقشت قضية فلسطين ووجود اسرائيل كثيرا على نحو مجرد ، كقضايا سياسية تهم المختصين . لكن شعوبنا لم تعش المأساة الداهمة ليل نهار ، وشعوبنا امتلأت بالزهو الفارغ وبالرضا الكاذب عن النفس . ولو أدى أدبنا دوره الحقيقي لعاشت شعوبنا المأساة ووعتها وعملت ضدها . لو فهمت شعوبنا بأن اسرائيل ليست مجرد قضية سياسية نظرية تهم السياسيين فحسب . لو اتصلت رواياتنا الاجتماعية العظيمة بالوجدان العربي عن طريق فهم واسع لحقيقة اسرائيل كخطر سياسي واجتماعي وثقافي ، لامكننا تجنب الهزيمة المرة .

ولن نستطرد في التمنيات ، ولكني أود لو ان آدابنا وفنوننا تعلمت من مثيلاتها لدى عدونا وعرفت مثلا كيف لعب الادبالصهيوني دوره ، وان يكن مباشرا ، ولكنه لعب دورا خطيرا حتى فاز كاتب اسرائيلي هو شاموئيل يوسف عجنون بجائزة نوبل لان كتاباته « تمثل رسالة اسرائيل الى عصرنا ، وتكافح كفاحا رائعا من أجل تقديم التراث الثقافي للشعب اليهودي عن طريق الكلمة المكتوبة » . حقا انها جائزة استعمارية ولكنها نوع من اعتراف العالم باسرائيل وبأحلامها التوسعية . لذا أصاب غسان كنفاني في تحليله لهذا الحدث الادبي الخطير واعتباره بمثابة وثيقة بلفور أدبية .

لقد ظل شعبنا يتصور ان اليهودي الذي يواجهه هو يهودي حارة اليهود المغلقة ، اليهودي الخائر المتخلف. ولكن هذا اليهودي مضطهد وينظر اليه كمواطن من الدرجة الثانية في اسرائيل .

ان اليهود يرموننا في آدابهم بعدم المبالاة ويرون ان جماهيرنا بعيدة عن الاهتمام بالمواجهة العربية الاسرائيلية أو بالحرب العربية الاسرائيلية ، وأخشى أن يكون لتخلف الادب العربي المعاصر عن متابعة الاحداث دخل في ذلك .

وبينما تطبع الروايات الصهيونية بعشرات الطبعات وبالكثير من اللغات ، فان الروايات العربية تتعثر في النشر بين الدول العربية نفسها ولا تتم ترجمتها الى اللغات الاجنبية الا قليلا .

غير ان الحق يقتضي القول بأن هذا الموقف آخذ في التحول الآن ، وان يكن ببطء شديد . فبينما يقفز الموقف السياسي والعسكري قفزات عظيمة الى الامام ، يتخلف الموقف الادبي والفني عن مسايرة الركب الماضي للمواجهة الحتمية مع عدونا الاسرائيلي الاستعماري ، بالدرجة الكافية لدرء الادب كقيادة فكرية لنضال شعبنا ولتخطيط أحلام المستقبل . ان المواجهة مع العدو ليست مرتبطة فحسب بازالة عدوانه كلما اعتدى . ولكنها مرتبطة بوجوده الغريب على أرضنا العربية . ومواجهتنا للعدو ليست مواجهة سياسية وعسكرية فحسب وانما هي أيضا مواجهة أدبية .

اننا نواجه شعبا معبأ بكافة وسائل التعبئة الثقافية والمادية . نواجه أقل نسبة أمية ، وأعلى نسبة توزيع في الصحف والكتب . نواجه جماهيرنا العربية المطحونة داخل الارض المحتلة تحت وطأة الاستعمار الصهيوني وجهوده الثقافية لطمس معالم الثقافة العربية ومحو القومية العربية . ان الجنون التوسعي الاستعماري الذي ينتشي به الشعب في اسرائيل ثمرة للادب الصهيوني الموجه ، بل انه سند الدعاية الصهيونية في الداخل وفي الخارج . اننا نواجه شعبا يجند رجاله ونساءه من سن المراهقة حتى سن الكهولة . ويوالي الحشد الثقافي والسياسي والعسكري لمواجهتنا دائما في الحرب والسلم. لذا فالى جانب مواجهتنا السياسية والعسكرية يتحتم وجود مواجهة أدبية أيضا .

القاهرة — **أحمد محمد عطية**